كنيسة مارمرقس القبطية
الأرثوذكسية ـ بمصر الجديدة

لأعرفه

إعداد
د/ نيفين عادل صادق

مراجعة وتقديم
أبونا/ داود لمعى

الكتـــــاب: لأعرفه

إعــــــداد: دكتورة / نيفين عادل صادق.

مراجعة وتقديم : أبونا/ داود لمعى.

الناشـــــر: كنيسة مارمرقس ـ بمصر الجديدة.

الطبعــــــة: الأولى ـ يناير ٢٠١٤

رقـم الإيـداع:

المطبعـــــة: دار النوبار للطباعة.

صاحب القداسـة
الأنبا تواضروس الثانى بابا الإسكندرية
وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

يعرف الإنسان الله .. لكنه لا يدركه تمام الإدراك، فالله يُعرِّف نفسه للإنسان .. وهذا ما سماه الآباء "الإعلان الإلهى" .. ولكن الإنسان ينمو فى معرفة الله بقدر صدقه وحبه للحقيقة .. ويظل الله "غير المُدرَك".

والله يُعلن عن نفسه فى خليقته .. فى جلال الطبيعة وتناسقها.. فى الإنسان وضميره الحي .. ومن خلال الأنبياء الأمناء حاملى رسالته، ويُكمل الإعلان الإلهى بتجسد الكلمة .. **"الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ"** (يو ١ : ١٤) .. وفى المسيح عرفنا الله .. الذى كان مجهولاً.

ولكن حسب تعليم المسيح نفسه .. **"عَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ"** (يو ١٧ : ٢٦) .. تظل المعرفة تستمر وتنمو وتمتد داخل الحياة الأبدية لإكتشاف روعة هذا الإله الأبدى والتمتع بأبوته بلا حدود.

فى هذه المعانى العميقة .. تغوص بنا الخادمة والكاتبة القديرة .. *دكتورة/ نيفين عادل* .. لنتأمل فى معانى معرفة الله من خلال شخصية المولود أعمى .. الذى تعرَّف على المسيح عن قرب فى الوقت الذى تاهت معرفته عن كثيرين من المبصرين فى جيله.

وأيضاً فى قصة الخلق .. وحياة آدم وحواء اللذان إفتقرا إلى معرفة الله ـ رغم كل الإعلانات الأولى ـ ودخلا وأدخلا البشرية من ورائهما إلى ظلمة الفساد .. حتى أنارها المسيح بتجسده.

ربنا يعوض تعبها وخدمتها .. ويجعل هذه الكلمات العميقة سبب تأمل وشبع للنفوس الحائرة .. والباحثة عن الله.

بصلوات صاحب الغبطة والقداسة البابا الأنبا تواضروس الثانى، الرب يحفظ حياته لنا سنيناً كثيرة وأزمنة سلامة مديدة.

صلوا من أجلى ..

أبونا / داود لمعى

الفصل الأول ..

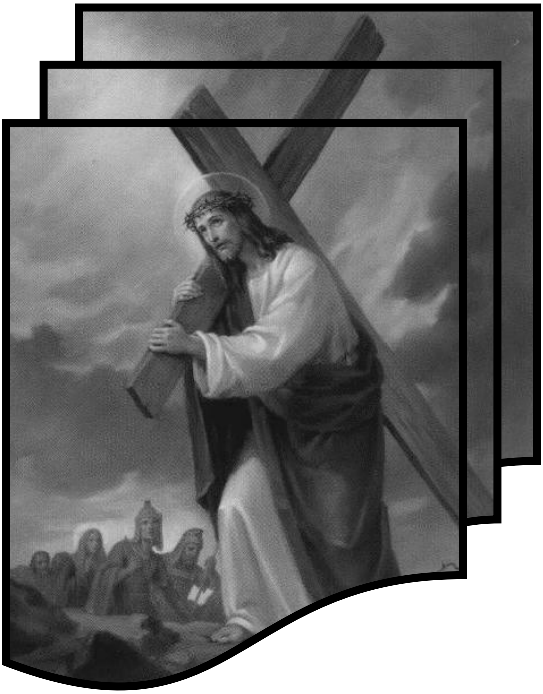

لأعرفـــه

"لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهاً بِمَوْتِهِ"

(في ٣ : ١٠)

لأعرفه .. رغبة ألهبت قلب القديس بولس حتى أنه وجد أن كل ما مُنح له من مركز ثقافى ودينى ومال وجاه .. يُعتبر ذهيداً مقارنة بمعرفة الله ..

"بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضاً خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبَحَ الْمَسِيحَ. وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبِرُّ الَّذِي مِنَ اللهِ بِالإِيمَانِ. لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهاً بِمَوْتِهِ. لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى قِيَامَةِ الأَمْوَاتِ." (في ٣ : ٨ - ١١).

لأعرفه .. كلمة يقولها القديس بولس بفخر وبفرح وبإحساس بالتمييزعن الحكماء من هذا العالم، لأنه كفيلسوف عرف أن أرقى أنواع الملحدين وهم الملحدون العقليون قالوا **"**أن العقل يفترض وجوب وجود إله للعالم، لكن هذا الإله أسمى من إدراكنا، ولذلك **لا نستطيع أن نعرف عنه شيئاً".** ناهيك عن الملحدين الماديين الذين لا يؤمنون بوجود الله من الأصل.

كيف نعرف الله؟ الذى قيل عنه أن كُنْه الحياة الأبدية هى معرفته؟ .. **"وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ"** (يو ١٧ : ٣).

وتأتى الإجابة من فم السيد .. **"الَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي والَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي"** (يو ١٤ : ٢١) .. وهنا تظهر العلاقة الوطيدة بين حفظ وصايا الله وإظهار الله ذاته لنا لنعرفه.

هل معرفة الله هى مجال بحث اللاهوتيين والدارسين فقط؟.. بالقطع لا، لأنه لو كان كذلك لأصبح الفقراء والبسطاء والمعوزين من قليلى الأنصبة فى تلك المعرفة. ونحن جميعاً نعلم أن الفقراء والبسطاء هم من أوائل المهاجرين إلى السماء، وأن هناك معرفة خاصة بهؤلاء، معرفة فى بساطتها تتحدى كل أنواع المعرفة الأخرى، معرفة تتكون فى قلب هؤلاء بيقين الحب وبساطة الإيمان، فتتحول إلى صلاة تتخطى كل الحواجز، لتصل ببساطة إلى قلب الله.

ولهؤلاء أيضاً تنضم فئة الأطفال والرضعان **"وَفِي تِلْكَ السَّاعَةِ تَهَلَّلَ يَسُوعُ بِالرُّوحِ وَقَالَ: «أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ. نَعَمْ أَيُّهَا الآبُ لأَنْ هَكَذَا صَارَتِ الْمَسَرَّةُ أَمَامَكَ»"** (لو ١٠ : ٢١) .. بل إن الله يطلب منا أن نصير مثل الأطفال **"إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ."** (مت ١٨ : ٣).

وقد ميَّز العلامة أوريجانوس بين نوعيين من معرفة الله، نوع يناسب البسطاء ويعتمد على الحقائق البسيطة فى الإيمان .. ومن حياة هؤلاء نتلامس مع الكثير من المعجزات، ونوع يناسب البالغين الشغوفين بالمعرفة والمنطق والتحليل، ومن هؤلاء خرج كل معلمى مدرسة الإسكندرية الأوائل الذين أبحروا فى معانى كلمات الكتاب ومزجوا بين الفلسفة والروح وأخرجوا لنا روائع الفكر الروحى والتفسير العميق للكتاب المقدس.

ولعل التفوق هنا يأتى لحساب البالغين ..

فالقديس بولس يقول .. **"لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَنَاوَلُ اللَّبَنَ هُوَ عَدِيمُ الْخِبْرَةِ فِي كَلاَمِ الْبِرِّ لأَنَّهُ طِفْلٌ. وَأَمَّا الطَّعَامُ الْقَوِيُّ فَلِلْبَالِغِينَ، الَّذِينَ بِسَبَبِ التَّمَرُّنِ قَدْ صَارَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُّ مُدَرَّبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ"** (عب ٥ : ١٣ ـ ١٤).

نعم الأطفال يتميزون بالبساطة والوضوح، فمواقف الحياة عندهم ليست ملونة إلا بلونين فقط هما الأبيض والأسود، ولا مجال للون الرمادى، ولكن الإنسان البالغ قد يتفوّق على الأطفال فى خبرته الطويلة فى الحياة وعشرته مع الله. فهو قد مرَّ بخبرات كثيرة فى الحزن والفرح، الصليب والقيامة، الضعف والقوة، السقوط والقيام وفى هذه جميعها عرف ألواناً من المتناقضات، عرف ألواناً رمادية، ولدقته الشديدة أصبح يميز بين اللون الرمادى الذى يحتوى على نسبة أكثر من اللون الأبيض، والرمادى الذى يحتوى على نسبة أكثر من اللون الأسود، أى هل هو أمام طريق ضيق يؤدى للحياة الأبدية أم طرق تبدو مستقيمة وعاقبتها طرق الموت!.

والخلاصة .. إذا كان الأطفال يميزون ببساطة بين الصواب والخطأ ـ على شرط أن يكون الصواب ناصع البياض والخطأ حالك السواد ـ فالبالغين يستطيعون بخبرتهم الطويلة والعميقة مع الله أن يميزوا بين الصواب والخطأ فى مواقف الحياة الأكثر تعقيداً.

مثال: آية قالها السيد المسيح تثير الحيرة **"كُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَداً أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْلِ اسْمِي يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ."** (مت ١٩ : ٢٩) .. وأيضاً **"لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَداً أَوْ حُقُولاً لأَجْلِي وَلأَجْلِ الإِنْجِيلِ. إِلاَّ وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هَذَا**

الزَّمَانِ بُيُوتاً وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلاَداً وَحُقُولاً مَعَ اضْطِهَادَاتٍ وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ." (مر ١٠ : ٢٩ ـ ٣٠).

هذه الآية التى طبقها أباؤنا الرسل بالحرف، قد تحتاج منا اليوم لتدقيق شديد لتمييز الظروف التى تسمح للرجل بترك إمرأته وأولاده من أجل الله العادل الذى لا يمكن أن يسمح للأذى النفسى للزوجة والأبناء. ربما الإجابة تنبع من نيات القلب، هل ترْك الزوجة هو نوع من الهروب من المسئولية والبحث عن تمجيد الذات، أم حباً شديداً فى الله وبذلاً للذات وإيمان شديد أن ترك الأولاد من أجل الله هو تسليم الأولاد لرعاية الله. وألا يكون قراراً إجبارياً للزوجة. ومن حكمة الكنيسة أنها تجعل زوجة مَن يُدعى للكهنوت مشاركة فى هذا القرار حتى تكون راضية بالإستغناء الجزئى عن زوجها.

وهناك العديد والعديد من الآيات والوصايا التى ربما تشكل موضع حيرة من شخص لآخر، ما هو الحد الفاصل بين الصواب والخطأ، العطاء والأنانية، خدمة الآخر وخدمة الذات؟ أى ماذا يريد الله من كل إنسان على حده فى كل موقف؟ الإجابة تكمن فى "لأعرفه" فالذى يعرف الله سيعرف ماذا يريد الله منه وخصوصاً إن كان يتمتع بعقل البالغين وقلب الأطفال، عقل البالغين ليميز بالحكمة كل موقف وقلب الأطفال الذى يحب الله فيتلامس بسرعة مع مشيئته دون الوقوع فى حيثيات وتعقيدات.

كيف نعرف اللّه؟

الله ظهر فى الجسد وتراءى لنا فى هيئة إنسان، وفى المخابئ لم يعلم أحد بل علم الناس على السطوح وفى الحقول حتى يتسنى للكل رؤيته ومعرفته. ونحن أيضاً مدعوون لنراه كما رآه هؤلاء من خلال ما نقل إلينا الإنجيل وكاتبيه كشهود عيان.

ولكن طموحنا الروحى يريد أن يتلامس بشكل شخصى مع الله، يريد أن يعرف الله وقوة قيامته وشركة آلامه، يريد كما أراد المسيح **"عَرَّفْتُهُمُ اسْمَكَ وَسَأُعَرِّفُهُمْ لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ"** (يو ١٧ : ٢٦) .. وأيضاً **"إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْباً."** (٢كو ٦ : ١٦).

فالإنسان يريد معرفة خاصة به، يريد أن يتحدث له الله بلغة لا يفهمها أحد آخر إلا هو، يريد أن يترآى له الله بشكل خاص وشخصى فيقول **"تَرَاءَى لِي الرَّبُّ مِنْ بَعِيدٍ: وَمَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ."** (إر ٣١ : ٣) .. يريد أن تكون هناك كلمة السر والإشارة الخاصة بينه وبين الله.

لذلك سنرى المعرفة الشخصية من خلال شخص كان أعمى والآن يبصر وفى العمى أبصر الله وعرفه, وشخص آخر أبصر الله وجهاً لوجه ـ آدم ـ ومع ذلك لم يستطع أن يرى الله ولم يستطع أن يعرفه!.

إذن نحن أمام شخصيتين آدم من العهد العتيق، والمولود أعمى من العهد الجديد. شخصان واحد من سفر التكوين الذى بدأ بكلمة فى البدء ويقصد بدء الخليقة، والشخص الآخر من البشارة

بحسب معلمنا يوحنا والتى بدأت أيضاً بكلمة "فى البدء"، ولكن الغريب أنها هنا تعنى ليس بدء الخليقة المادية ولكن السرمدية حيث كان الكلمة اللوغوس، وهذا البدء الذى لا بداية له هو أقدم بكثير من "البدء" الذى تكلم عنه سفر التكوين. وكنا نتصور أن سفر التكوين قدَّم لنا أقدم حدث فى الكتاب ولكن يوحنا الحبيب آخر كاتب من كتاب البشائر الأربع بعمق فهمه للاهوت يعود بنا بزمن قبل سفر التكوين بأزلية السنوات حيث **"فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ"** (يو ١ : ١).

إذن سنتعرف على شخصين عرفا الله .. أحدثهما ـ المولود أعمى ـ تعرَّف على الله الأزلى ببصيرة أقوى من الحاسة البصرية وهو أعمى، والآخر ـ آدم ـ رأى الله ببصره ولم يعرفه حق المعرفة بالرغم من قوة الإبصار ووضوح صورة الله. لذلك ادخله الله فى العمى والظلمة المؤقتة حتى يستطيع أن يرى الله ببصيرته بعد أن اختفى الله من أمام ناظريه بعد الطرد من الفردوس. أتجاسر وأقول أن شجرة معرفة الخير والشر، أى شجرة معرفة النور والظلمة كانت بداية رؤية الله. ولم يكن آدم ليدرك جمال النور الإلهى إلا بعدما تخبَّط كثيراً فى الظلمة، لم يكن ليدرك إحسانات الله عليه وقيمة التدليل الذى حباه الله به فى الفردوس إلا بعد أن ذاق مرارة الحسك وتأذى بجراحات الشوك، حيث تعامل مع الأرض التى تنتج شوكاً وحسكاً كما قال الرب. وبدأ يتعلم أن يفرح ويشكر على أبسط الأشياء، كما يقول القديس أوغسطينوس [الفرح الذى يسبقه عذاب مضن قاس، هو أعظم فرح].

[العذاب هو الخيط الذى يحاك منه نسيج الفرح] هنرى دو لو باك.

وبما أننا سنتحدث عن إثنين فقط من الكتاب المقدس فنحن إذن نتحدث عن صخرتين صغيرتين فى جبل كبير، حيث الصخرتان هما آدم والمولود أعمى، والجبل الكبير هو كل شخصيات الكتاب منذ البدء إلى الأبد.

سنعرف من المولود أعمى كيف عرف الله، وسنعرف من آدم كيف نعرف وصاياه من خلال شجرة معرفة الخير والشر.

أما عن معرفتنا الشخصية لله فهناك مشكلة، هى أن الإنسان أحياناً يرى الله من خلال نظارة معتمة ملونة، فلو كان لونها أسود سيرى الله قاسياً مهيباً جباراً، وإن كان لونها أحمر سيرى الله ـ حاشا ـ دموياً ومُحباً للإنتقام، وإن كان لونها أصفر سيرى الله مُتسامحاً ودوداً لا يحب العقاب وربما ـ حاشا ـ متسيباً بعض الشيء. ومهما كان لون النظارة سيكون الله متلوناً بلون مختلف عن حقيقته. فما الحل إذن؟ .. الحل أن نرى الله بعينيى القلب النقيتين اللتين لا تريدان تغيير شكل الله بما يتناسب مع ميول النفس ورغباتها.

وإن كان الله قد اهتم بإرجاع الإنسان إلى صورته الأولى وأزال عنها التشويه الذى حدث نتيجة الخطية، فالغريب أن الكثير من الناس قد شوهوا صورة الله! .. واحد يصوره كإله يحب العنف والإنتقام وآخر يصوره كإله حالم يحيا فى هيام مع الإنسان وكأن الحياة الروحية حب وهيام وليس بها عمل واجتهاد وتحمّل للمسؤلية، وآخر فى طمعه فى ماديات الدنيا يصور الله كما لو كان موزعاً للكنوز المادية على محبيه، حتى صار تشويه صورة الله قريب من عبادة الأصنام! .. أليست الأصنام هى آلهة من صنع الإنسان وهوى قلبه؟!.

فهؤلاء الذين يرون الله قاسى هم فى الحقيقة يعبدون القوة ويريدون إلهاً بهذا الشكل.

والذين يرون الله هيمان فى الإنسان على طول الخط يعبدون ذواتهم ويتمركزون حولها ويريدون لها التدليل طوال الوقت.

و الذين يجرون وراء المعجزات فقط يعبدون الحياة المادية بما فيها من مال ونجاح وصحة.

لكن أين الحقيقة؟ .. الحقيقة أن الله يستعمل الكلام القوى للأشرار ليتوبوا حيث أن حساسيتهم قليلة، بينما الخطاة البسطاء لا يستعمل معهم العنف حيث يتوبون بالقليل من كلمات العتاب. فالسيد لا يقصف القصبة المرضوضة، بينما السيد يوفر كلمات الحزم لقساة القلوب فيقول لهم "ويل لكم". والغريب أن الإنسان الحساس والرقيق القلب هو مَن يتأثر بالكلام الموجع ويأخذه على نفسه، بالرغم أن هذا الكلام غير موجه له من الأساس. ومثال على ذلك حينما تكلم الرب عن يهوذا قائلاً **"إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي"** (مت ٢٦ : ٢١) لم يرق قلب يهوذا**!!** .. بينما التلاميذ الأنقياء يأخذون الكلام على أنفسهم **"فَحَزِنُوا جِدّاً وَابْتَدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ لَهُ: «هَلْ أَنَا هُوَ يَا رَبُّ؟»"** (مت ٢٦ : ٢٢).

وهنا طمأنهم الرب أن لا أحد منهم هو المَعْنِى بالتوبيخ بل مَن يغمس معه فى نفس الصفحة ثم استطرد قائلاً **"وَيْلٌ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْراً لِذَلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ"** (مت ٢٦ : ٢٤).

ولكن حقاً إننا نرى أكثر من شخصية لله .. فلابسى النظارات لم يؤلفوا صورة الله من تلقاء أنفسهم، بل هذه الصور تشكلت من رؤيتهم لبعض مواقف الكتاب التى يبدو الله فيها أحيانا شديداً وأحياناً رقيقاً, فكيف ذلك؟

قد سبق وأشرنا إلى أن الناس تخلق آلهة على هواها من أذهانها. فهل الله ذو شخصية ثابتة أم له عدة شخصيات؟ ربما الإجابة التى تبدر إلى الذهن أن الله له شخصية واحدة وهو أنه إله بسيط. وهذه حقيقة ولكن الأدق والأعجب **أن الله يتشكل لنا بحسب إحتياجاتنا** وهذا هو كمال محبته، طالما هذا التشكيل فى إطار محبته ورحمته وحزمه وعدله، فالله كمحب حقيقى يتشكل بحسب ما يريده محبوبه الإنسان كى ما يعجبه، فالله ـ وهو الثابت فى جوهره ـ يترآى بالطريقة التى تعجب كل إنسان على حده. فهو يتحدث مع توما العقلانى بالدليل العلمى على قيامته وهو اللمس، وكأنه فى معمل ويريد أن يثبت له صحة النظرية بأن المسيح قام من الأموات بطريقة "التجربة والمشاهدة والإستنتاج". بالرغم أن الله نفسه لا يفضل هذه الطريقة، فهو يفضل ويعطى الطوبى لمن آمنوا دون أن يروا **"طُوبَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَرَوْا"** (يو ٢٠ :٢٩).

ومع شخص آخر كيهوذا لم يكن ليفضل أن يوضع الصندوق فى يد إنسان سارق مثله **"هَذَا لَيْسَ لأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ بَلْ لأَنَّهُ كَانَ سَارِقاً وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ"** (يو١٢ : ٦)، ولكن لعلمه أن يهوذا يحب المال والتعامل مع المال ترك المال له لعله يتغيّر من طول الوعظ أو لعل كثرة وجود المال فى يديه تجعله يذهده.

وتشكل لأبو الولد المجنون بأن أعطى له معجزة شفاء لإبنه بالرغم أن الأب أخل بشرط الإيمان اللازم لحدوث المعجزة **"أُومِنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي"** (مر ٩ : ٢٤). فالشرط يقول كل شيء مستطاع لدى المؤمن، أما الأب المسكين فلم يكن عنده ما يكفى من الإيمان ليحصل على معجزة الشفاء، ولكن الله يتشكل له ويعطيه مراده بالرغم من عدم إيمانه. فالله المحب لا يطلب ما لنفسه **"لاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا"** (١كو ١٣ : ٥).

حقاً إنه إله محب للبشر ومحبته تملأ العقل شبعاً والقلب فرحاً. لذلك نتضرع مع القديس أوغسطينوس قائلين [هبنى ذاتك يا إلهى وإستسلم إلىَّ لأنى أحبك. وإذا لم يكن حبى لك كافياً فزدنى منه. عاجز أنا عن معرفة ما ينقص محبتى لتصبح كافية لإلقاء حياتى بين ذراعيك وتوجيهها إليك لتختبئ فى سر وجهك. أنا أعرف أن كل ما عداك يُسيئ إلىَّ، أكان فى الداخل أم فى الخارج، وأدرك أن كل ما أعتبره غنى لى ماخلاك، بؤس هو وشقاء].

لماذا أعرف اللّه؟

سأعرفه .. لأن العالم بدون الله تجتاحه الفوضى والدمار والخوف والقلق. حتى أن الكاتب "دستويفسكى" يقول [إن الله إذا اختفى أصبح كل شيء جائزاً، الخير والشر ـ الفضيلة والرذيلة].

والمفكر الفرنسى فولتيير يهاجم دعاة الإلحاد فى عصره قائلاً [كيف يشُكون فى وجود الله؟ ولولاه لخانتنى زوجتى وسرقنى خادمى].

سأعرفه .. لأن الحياة بدون الله ستكون بلا معنى، وقيمة الإنسان لن تكون أكثر من قيمة حيوان ناطق يأكل ويشرب ويتعلم ويعمل ثم يكبر ويمرض لأنه غداً سيموت. بينما الحياة مع الله هى كمال الشبع بدفء إله يحب ويحمى، يعلم ويتكلم مع الإنسان ليورثه كل شىء وليرفعه لرتبة خليله وتاج خليقته.

الفصـل الثـانى ..

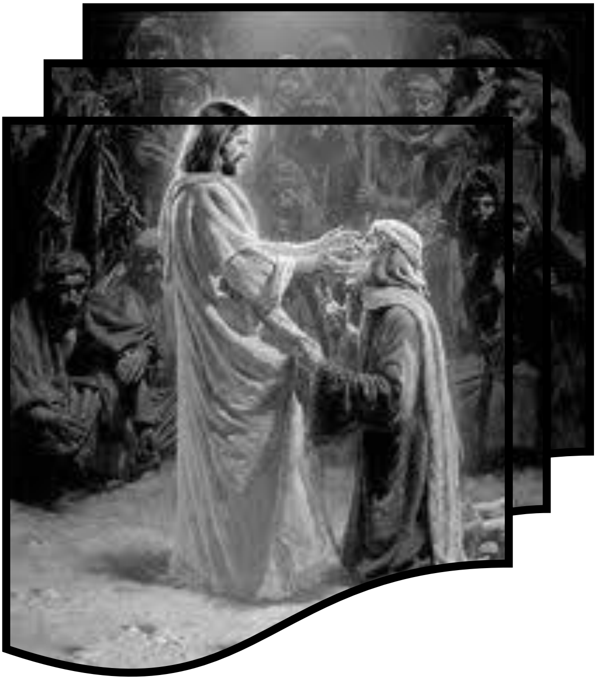

لأعـرفـــه
مـن خـلال المـولـود أعـمـى

تبدأ معرفة المولود أعمى عن الله منذ نعومة أظفاره، فلربما وصلت إليه همسات الناس المُتْعِبَة القائلة **"يَا مُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟"** (يو ٩ : ٢)، صحيح أن هذه الجملة سمعها من التلاميذ فيما بعد ولكن الذى قاله التلاميذ ما هو إلا إنعكاس لفكر المجتمع وآراء البيئة السائدة فى تلك الفترة. ولربما أثَّرَت تلك الأقوال على نظرته لله ولأبويه ولنفسه، فلربما إستشعر الإحساس بالقهر من هذا الإله المسيطر على البشر الذى يعطى البصر ويمنعه كيفما يشاء بقواعد لا يعرفها أحد إلا هو، وقد حرم على البشر الإعتراض ولربما سمح ببعض الإمتعاض. أما عن أبويه فلعل الحيرة تملكته والخزى أخجله بينما السؤال يدور فى ذهنه، يا ترى ما هى الفعلة الشنيعة التى إقترفها أحد أبويه أو كليهما حتى تمت عقوبتهما بإنجاب طفل أعمى منذ ولادته؟! وإن كانا قد أخطأ، أفما كان يجب على الله أن يعاقبهما هما بفقد البصر بدلاً من أن يُعاقب هو!؟

أما أصعب سؤال سأله لنفسه "يا ترى ماذا فعلت؟ .. ومتى فعلت الخطأ؟! .. هل قبل أن أولد؟! .. هل وأنا فى الرحم أم قبل أن يُحْبل بى؟! .. وأى منطق ذاك الذى يقوله الناس أننى أعمى بسبب خطأى وأنا لم يتح لى من الزمن أى زمن قبل أن أولد أعمى؟! .. أم يا ترى يصدقون الخرافة التى يُنادى بها الفلاسفة أن الإنسان ربما أخطأ فى حياة سابقة وها هو يعاقب فى الحياة الحاضرة؟!".

أسئلة بلا إجابات. وإن كان الإنسان العادى تؤرقه الأسئلة وسط إنشغالات الحياة، فلنا أن نتخيل حجم الأسئلة التى تحارب الأعمى الذى لا يجد شيئاً يفعله فى الحياة غير التفكير والإستعطاء.

المولود أعمى قضى سنوات من الجلوس على باب الهيكل يريد أن يعرف الله، سنوات من سماع عظات عن الله إله العهد القديم، ربما بعضها تكلم عن مراحمه وربما بعضها تكلم عن دينونته ونقمته، ولربما أتاح له الفراغ غربلة المعلومات وتخيل شكل خاص عن الله.

ثم يأتى ذلك اليوم الذى يمر عليه جمهرة من التلاميذ يحيطون بسيد يُقال عنه أنه نبى يصنع معجزات، وتتردد بعض الشائعات أنه لربما يكون المسيا المنتظر وإن كان فقره وتواضعه لا يوحيان بتلك الفكرة.

"فِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَاناً أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ" (يو ٩ : ١).

لو قارننا بين حب الله لأولاده وحب الأبرار لأبنائهم لربما تراءى لنا أن الأبرار أكثر حناناً على أبنائهم من الله. فلا يمكن أن يختار أب بار لإبنه العمى أو العرج أو أى شكل من أشكال الإعاقة الجسدية. لايمكن أن يحتمل البار رؤية أولاده جوعى أو مرضى أو عريانين أو مكروبين أو مذلين. لا يمكن أن يرتضى البار لأبنائه بالتيتم ليس خوفاً على حياته ولكن خوفاً على أبنائه من مغبة اليتم والألم الإنسانى المصاحب له. بل لا يمكن لأب أن يرى بناته يتعرضن للإغتصاب الجنسى ويقف ساكناً ولا يثور غاضباً ولكن الله يرى ويصمت حتى أن راهبات الأرمن كانوا يُساء إلى عفتهن قبل إغتيالهن والله لا يفعل شيئاً. ولعل صمت الله أحد أسباب غضب الإنسان الغير مؤمن من الله، لأن الإنسان يقول فى قلبه إن كان الله أب وإن كان الله حنان فكيف نفهم صمته وسكوته على ألم أبنائه

وخصوصاً أنه يمتلك القدرة على منع المخاطر عن أولاده. وليس سراً أن بعض القديسين إستاءوا من هذا الصمت حتى أن داود النبى والملك قال ..

"يَا رَبُّ لِمَاذَا تَقِفُ بَعِيداً؟ لِمَاذَا تَخْتَفِي فِي أَزْمِنَةِ الضِّيقِ؟. فِي كِبْرِيَاءِ الشِّرِّيرِ يَحْتَرِقُ الْمِسْكِينُ. يُؤْخَذُونَ بِالْمُؤَامَرَةِ الَّتِي فَكَّرُوا بِهَا. لأَنَّ الشِّرِّيرَ يَفْتَخِرُ بِشَهَوَاتِ نَفْسِهِ وَالْخَاطِفُ يُجَدِّفُ. يُهِينُ الرَّبَّ. الشِّرِّيرُ حَسَبَ تَشَامُخِ أَنْفِهِ يَقُولُ: لاَ يُطَالِبُ. كُلُّ أَفْكَارِهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ." (مز ١٠ : ١ ـ ٤)

وأين العدل؟! .. لماذا يولد أناس عميان كل طموحاتهم فى الحياة أن يروا خطوات أرجلهم فى الطريق لئلا يتعثروا، وأناس يفسدون أعينهم بمناظر شريرة ومشاهد خليعة. ويتسائل الإنسان ألم يكن المسكين أولى بالنظر من الشرير الذى لا يستحق البصر؟.

وماذا نقول عن الذين لا يعيشون فترة طويلة من العمر سواء بنظر أو بغير نظر، هؤلاء الأطفال الذين يموتون بالمجاعات والأوبئة أو الحروب والأهوال. أين العدل؟!.

هذه الأحداث جعلت البعض يقتنع بفكرة الإلحاد على إعتبار أنها أكثر قبولاً للعقل، من فكرة أن الله يسمح للألم لأولاده لكى ما يحصلوا على بركات الصليب وأمجاد الحياة الأبدية... إلخ.

ولسنا هنا بصدد مناقشة لماذا يسمح الله بالألم ولكن ما سنتطرق إليه هو حقيقة أن التعرض للألم ليس علامة على قلة حب الله .. والدليل بسيط فإن كان الله الآب سمح لإبنه الوحيد المحبوب يسوع المسيح بالألم والمهانة والظلم والفقر فهذا معناه أن أبوة الله

للإنسان ليست معناها خلو حياته من الألم والمهانة والظلم. وإن كان الله سمح لأمه السيدة العذراء أحب النساء إلى قلبه بأن تعتصر ألماً على رؤية وحيدها يتعرض لآلام الصلب، فهذا أيضاً معناه أن أبوة الله للبشرية لا تلغى هذا النوع من آلام القهر والإعتصار.

أمَّا لماذا يسمح الله بهذه الأنواع من الآلام، بينما لايسمح الأبرار لأولادهم بمثل هذه الأنواع؟ لأن أولويات الله لأبنائه تختلف عن أولويات الأبرار لأبنائهم. فأولويات البشر لأبنائهم هى الصحة والعافية والسعادة ورغد العيش والراحة، بينما أولويات الله هى فى الحياة الأبدية ومعرفة الله والتحرر من إرتباطات العالم الزائل.

كما أن الألم هو الذى يكشف عظمة الإنسان. [العظيم من كان عظيماً فى الشقاء، عظيماً فى السجن، عظيماً فى القيود والسلاسل] تشارلز ديكنز. [لا شيء يُصيرنا عظماء مثل الألم العظيم] ألفريد دو موسيه.

"فَسَأَلَهُ تلاَمِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟»." (يو ٩ : ٢).

ها هو ذا السؤال يتكرر ويفتح جرحاً قديماً فى قلب المولود أعمى، كلما أوشك أن يلتئم أُعِيد فتحه من جديد بالسؤال القديم من أى عابر سبيل "أهذا أخطأ أم أبواه؟!" لماذا لا يتركونه وشأنه على عماه؟.. هل إشتكى لإنسان من عماه؟ .. كل ما يطلبه من الناس أن يعطونه القليل من المال أو الخبز أو الماء أو الكساء ليشبع جوعه أو يروى ظمأه أو يستر عريه، ويتركونه لحال سبيله. والتلاميذ الأطهار لم يعطونه شيئاً إلا الألم من السؤال.

ولكننا الآن نحن أيضاً نريد أن نعرف الإجابة على السؤال. لماذا ولد أعمى؟

الحقيقة إن الأخطاء الجينية تسبب العمى ولكن الله لم يذكر هذه المعلومة، ربما لأن أحداً لم يكن ليفهم ما يقوله، فلم يكن أحد يعرف فى جسم الإنسان إلا الأعضاء الكبيرة المنظورة بالعين المجردة. لذلك آثر الله أن يجيب على سؤال التلاميذ هكذا **"لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ"** (يو ٩ : ٣). والجميل أن الله يتحدث عن الجانب الإيجابى من القصة **"لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ"** ولم يتحدث عن الجانب السلبى. فلكل قصة وجهتا نظر على الأقل. فهوذا الله ينظر إلى الجانب الإيجابى من القصة ويرويها بكلمات مفرحة وإيجابية.

ولنا أن نتخيل وقع كلمات السيد **"لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ"** على المولود أعمى، فلأول مرة فى حياته يسمع كلمات تعفيه هو ووالديه من مسئولية العمى، وتعلن براءتهم جميعاً من اللعنة التى حلت عليهم بالعمى، ولنا أن نتخيل كم الحب الذى استشعره هذا الأعمى تجاه السيد الذى أشعره بإنسانيته وآدميته. ولعل ذلك يفسر لنا الطاعة العمياء التى أطاع بها الأعمى السيد والدفاع المستميت عنه أمام الفريسيين فيما بعد.

"لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ" (يو ٩ : ٣)

أى ليبرأ فيؤمن الكل بالله. ولكن المحيّر أن السيد المسيح قال لتظهر أعمال الله وتحدث عن الأعمال بصيغة الجمع ولم يقل عملان= البصيرة والبصر! إذن الموضوع أكثر بكثير من البصيرة

والبصر بل هى أعمال ربما يومية، ففى كل يوم يشعر الأعمى بضعفه يلجأ لله حيث لا ملجأ آخر سواه متمسكاً بإيمانه ومتمسكناً بضعفِه للإله القوى القدير، فتجرى أمام عينيه معجزات الله منهمرة، فتجعله متمسكاً أكثر بضعفه مكتفياً رغم فقره لأن قوة الله تكمل فى ضعفه.

وهذه تعزية للعميان الذين لن تتاح لهم نعمة الإبصار طوال حياتهم أى الذين لا يصنع معهم الله معجزة الإبصار.

"يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ." (يو ٩ : ٤).

لا يستطيع أحد أن يعمل فى الليل: ربما يقصد به الموت أو ربما يقصد به ليل الأشرار حين لا يستطيع أحد أن يعمل فى وجود قلب شرير مظلم لا يريد أن يبرأ. حاول داود أن يعمل عمل الحب فى ظلمة قلب شاول بكل ما أوتى من نور قلبه وتواضعه وغفرانه ولكن أبى قلب شاول العنيد أن يُنير، وما إستطاع داود أن يعمل، نعم إن أعماله قد أضحت كنزاً له فى السماء وأكاليل مجد على رأسه ولكن ما عملت فى قلب الشرير شاول.

هل يستطيع السيد أن يعمل فى الليل أم مثل كل أحد لا يعمل فى الليل؟!
.. الإجابة أن الله أحياناً كثيرة لا يعمل فى الليل. فيقول الكتاب..

"وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ. وَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ. وَصَارَ يَطُوفُ الْقُرَى الْمُحِيطَةَ يُعَلِّمُ." (مر ٦ : ٥ ـ ٦).

فإذا كان عدم الإيمان ظلمة فالمسيح لا يقدر أن يعمل فيها .. **"مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ"** (يو ٩ : ٥).

يقول الأب يعقوب [كما أن المصباح يُضيئ غرفة النوم المظلمة، هكذا خوف الله عندما يدخل القلب ينيره ويعلمه كل الفضائل ووصايا الله].

ولكن ماذا يحدث يا الله عندما تصعد من العالم؟ مَن سيضئ العالم؟

سيُضيئ العالم بى أيضا لأنى لن أترك العالم بل .. **"وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ"** (مت ٢٨ : ٢٠).

وأيضاً سيُضئ العالم بأبنائى الذين قلت لهم **"أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ."** (مت ٥ : ١٤) .. فالقديسين هم أنوار العالم ولست أقصد فقط الناسكين العظماء ولكن البسطاء الذين إستطاعوا أن يصنعوا وصايا الكتاب فى أحلك الظروف. هؤلاء يضيئ الله من خلالهم.

ومن هؤلاء إمرأة كان لها ابن فى سن البلوغ ويوماً ما أتى إليها ضباط شرطة ينعون لها خبراً من أقسى الأخبار وهو أن زميل لإبنها فى المدرسة قد قتله بالرصاص. وماجت الدنيا من حولها، ولحظة من الزمان عبرت كأنها دهراً، وتحولت هذه المرأة من أم إلى ثكلى، ومن صاحبة أسرة إلى أشلاء أسرة، و جاء الموت غادراً فلو كان إبنها مات جراء مرض عضال لتقبّلت أقدارها على أن إبنها قد نفذ زيته من المصباح بأمر إلهى فيتعزى قلبها، أما وأن يذهب غدراً بسبب طيش مراهق وإهمال أسرة لا تراقب مقتنيات إبنها القاتل وسوء دولة وتاجر جشع يستبيح بيع السلاح لطفل صغير

طمعاً فى الربح فهذا شيء لا يُغتفر ولا يُنسى ولا يُشفى .. نيران مرارة وكراهية وغل من القاتل لا تطفئها أنهار العالم كله، ولكن فقط حد من إنتشارها أن الشرطة تمنع أهل المجنى عليه من الإلتقاء بالجانى إلا بعد صدور الحكم. وانتظرت الأم شهوراً طوالاً تتمنى اليوم الذى تواجه فيه قاتل إبنها وثاكلها لتقذف عليه أصعب الويلات عَلَّ نارها تهدأ قليلاً. ومضى الوقت بطيئاً كعادته فى أوقات الألم وهى تتعجب من الزمن الذى يكيل بمكيالين، طول الأناة فى وقت الألم وشدة السرعة فى وقت الفرح. فسنوات تمتعها بإبنها مرت كقطار مسرع فى طريقه، بينما تمر الأيام بعد فراقه كدهور طويلة لا تنقضى. وجاء يوم الحكم على القاتل وبالتالى جاء اللقاء بعد حكم المحكمة عليه بقضاء سنوات طويلة فى السجن. وهنا سُمِحَ لها برؤية القاتل، ودخلت ووجدت القاتل المراهق طفلاً يبكى، فقد تبرأ منه والداه وترسَّمت على وجهه علامات الرعب والفزع من المصير المنتظر. والمعروف أن فى السجن يتعرض السجناء للإعتداءات بكافة أنواعها. وهنا رأت الأم القاتل لا كمجرم حرمها من إبنها، بل طفل حُرِمَ من أمه بل ربما مجنى عليه من إهمال أسرة ما علمته وما أرشدته للصواب والخطأ بل تركته فى الحياة يعبث ما شاء حتى صار كزرع برى ينمو فى أى إتجاه. وهنا نظرت الأم إليه وربتت على كتفيه وقالت "يا بنى إن سمعى عن موت ابنى لهو أهون علىَّ من أن أسمع أن ابنى يلقى مصير كمصيرك. واعلم أننى أسامحك من كل قلبى وأنى سأكون لك أُماً إذا ما إحتجت إلى شيء فى استطاعتى وتكتمل القصة أن هذه السيدة داومت على زيارة هذا الإبن فى سجنه وداومت على الكتابة له حينما نقل إلى سجن أبعد، فى حين أن أسرته لم تزره ولا مرة واحدة. والناس من حول هذه

المرأة يتعجبون من قوة الغفران وعظم المحبة التى للقديسين نور العالم أبناء النور الحقيقى.

"قَالَ هَذَا وَتَفَلَ عَلَى الأَرْضِ وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِيناً وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى" (يو ٩ : ٦).

ربما تكون هذه هى المرة الوحيدة التى لم يقل فيها الله لأحد "أتريد أن تبرأ" فالله يحترم حدود الإنسان ولا يمكن أن يخترقها إلا لمَن له دالة قوية عنده وسابق معرفة به، ولعل هناك علاقة سابقة بين الأعمى والسيد جعلته يستشعر أن هذه اليد الغريبة التى صنعت من التفل طيناً ليست بغريبة، بدليل إستسلامه لتلك اليد بكل إحساس بالأمان والثقة بالرغم من أن ما تصنعه تلك اليد يبدو مؤذياً، فكيف لطين أن يصير دواء للعين! .. ولكن ها هوذا رجل غريب يتعدى على عينيه ويتصرف دون سؤال ويفعل ما يشاء دون إذن وكأنه صاحب الدار الحقيقى. وهذه حقيقة .. فهو صاحب العينين وخالق المقلتين، ربما تأخر قليلاً فى خلقتهما تأخيراً يساوى عدد سنين عمر المولود أعمى، ولكن ها هوذا يعود ليكمل ما قد بدأه، فقد رسم المقلتين ولكن أرجأ رسم العينين إلى تلك اللحظة التى ينوى فيها أن يَطلى بالطين عينى المولود أعمى.

ولا شك أن المولود أعمى يتمتع بفضيلة الطاعة والتى يقال عنها [الطاعة تكون من أجل الطاعة، فالإنسان إذا أطاع الله فإن الله يطيعه] الأب ميوس الذى من فيليوس.

ولعل برتيماوس الأعمى شعر بغيرة قوية من المولود أعمى الذى نال الشفاء دون أن يطلب ويصرخ ويلح. وهنا لنا وقفة أخرى،

لماذا يشفى الله البعض بعد لجاجة وإلحاح منهم ووساطة من قديسيه، بينما البعض الآخر يسعى الله بنفسه إليهم؟ .. لعل الإجابة أن هناك من تظلمهم الحياة، فيسارع الله بنفسه للتعويض عن هذا الظلم دون إستشارة الإنسان، بينما آخرون ينتظر منهم الله الطلبة حتى لا يفرض نفسه عليهم، وحتى يُقَدِّروا ما فعله الله من أجلهم.

سمح المولود أعمى للسيد أن يمس نقطة ضعفه "المقلتان الفارغتان"! ..

المحبوب لنا هو من نسمح له أن يمس نقاط ضعفنا وليس ذلك فقط بل قد يزيدها ضعفاً للحظات ويطليها بالطين، فيصبح شكلها لوهلة أسوأ من الأصل ولكن هذا هو السبيل الوحيد لتبرأ وترى.

"وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ». الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيراً." (يو ٩ : ٧).

اذهب .. اغتسل .. دائماً ما يصر الله على أن يشرك الإنسان فى عمل أى شيء ولو بسيط فى خلاصِه. فالله لا يحب التواكل، ولكن هناك مشكلة صغيرة وهى أن المولود أعمى لا زال أعمى ولم تنفتح عينيه بعد! .. أليست هذه قسوة من الله أن يأمر أعمى بالذهاب إلى مكان لا يراه؟ أين حنان الله واحساسه بالآخرين؟ ربما أى إنسان رقيق القلب فى مكان ربنا يسوع المسيح لما استطاع أن يطلب هذا الطلب من الأعمى ولربما أحضر بنفسه بعض الماء فى إناء من بركة سلوام للمولود أعمى حتى لا يتعبه ويرهقه ويحرجه.. ولكن الله له حكمة أخرى! أنه يريد أن يستثمر كل ملكات الإنسان حتى لا

تضمر، فالمولود أعمى يستطيع أن يتحرك فلماذا لا يتحرك حتى لو تعرض لبعض المشقة؟ وحكمة الله هذه لا يفهمها بعض البشر، فنجدهم كثيرى الحنان والرأفة على الضعفاء، والنتيجة أن الضعيف يزداد ضعفاً، بل وضموراً وربما كسلاً وتراخياً.

موقف الله مع المولود أعمى موقف يتكرر عشرات المرات فى حياة المؤمنين. فحينما تكون هناك تجربة ثقيلة .. ينتظر الله ولا يستجيب سريعاً، بل وإذ به يطلب شيئاً يسيراً من الإنسان، ولا يفهم الإنسان ما الداعى إلى هذا الثقل الإضافى، ولكن الله بهذا الثقل يقوى إرادة وإمكانيات الإنسان ليصير أقوى وأعظم. كما يقول أحد الحكماء [ما من شيء فى الدنيا أرحب وأكثر بطولة ونبلا وإرهافاً من نفس سليمة فى جسد مريض].

"فَالْجِيرَانُ والَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى قَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟»." (يو ٩ : ٨).

يجلس ويستعطى؟! .. هذا المنظر لا يعجب الله ولربما تفوَّق المفلوج على المولود أعمى حيث أن الأول يميل للحركة والسعى ولا يجعل من بطء حركته زريعة للجلوس والإستعطاء.

"آخَرُونَ قَالُوا: «هَذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ»." (يو ٩ : ٩).

قالوا أنه يشبهه لأن شكل المولود قد اختلف قليلاً بعدما أصبح بعينين.

"فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟». أَجَابَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً وَطَلَى عَيْنَيَّ وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟» قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ»." (يو ٩ : ١٠ ـ ١٢).

من الحكمة أحياناً أن نجيب "لا أعلم" عندما نُسأل عن الله **"يَا لَعُمْقِ غِنَى اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاِسْتِقْصَاءِ!."** (رو ١١ : ٣٣).

والمولود أعمى إنسان تجلَّت من فمه كنوز من الحكمة .. لأنه لا ينطق بما لا يعرف إلا عندما تكتمل معرفته. فى كلامه حكمة وفى صمته حكمة كما يقول القديس بيمن [مَن يتكلم على الله يفعل حسناً ومَن يصمت حباً بالله يفعل حسناً].

"فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلاً أَعْمَى. وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضاً كَيْفَ أَبْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِيناً عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ فَأَنَا أُبْصِرُ»." (يو ٩ : ١٣ ـ ١٥).

هو يريد أن يبرئ المسيح فقد أدرك من طريقتهم أنهم ينوون شراً، والعجيب أننا كبشر نستطيع أن نفهم ما يخبئه الآخرين من لؤم بمجرد النظر فى عيونهم لأننا نكتسب مع الزمن خبرة فهم الآخر من لغة جسده وبالأكثر لغة عينيه، أما المولود أعمى فلا يمتلك أى من تلك الخبرات، فهذه أول مرة فى حياته يرى الآخرين، ناهيك عن نظراتهم وتعبيرات وجوههم. ولكن كيف عرف؟ .. ربما عرف من نبرات صوتهم .. فنبرة الصوت قادرة إلى حد كبير على

إظهار ما تبطنه الكلمات، بالذات لذاك الذى اعتمد عليها لسنوات طوال فى فهم فكر الآخرين ليعوض عن حاسة البصر المفقودة.

"فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هَذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَاتِ؟» وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ. قَالُوا أَيْضاً لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ». فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. فَسَأَلُوهُمَا: «أَهَذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟». أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ: «نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا ابْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». قَالَ أَبَوَاهُ هَذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. لِذَلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ اسْأَلُوهُ»." (يو ٩ : ١٦ ـ ٢٣).

"هو كامل السن .. اسألوه" .. هذه الجملة توضح نوع أبوى المولود أعمى، فهما يرفعان عن كاهلهما المسئولية تجاه إبنهما، وكل همهما حماية أنفسهما وتأمين مستقبلهما من اليهود، هم مثال صارخ للآباء المتجردين من الشفقة.

ولعل طريقة الأبوين تضيف ثقلاً آخر على المولود أعمى، فهو يعلم أن أبواه لن يعيناه، ولعله يستشعر فى قلبه أنه ليس له أحد ليدافع عنه فى وقت الشدة.

"فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْداً لِلَّهِ. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ»." (يو ٩ : ٢٤).

هم يملون عليه الإجابة مسبقاً وتحت التهديد، لأن جملة "أعطِ مجداً لله" كانت تُقال للمحكوم عليهم بالموت قبل إعدامهم. وكأن المجرم يعترف أنه مؤمناً بالله حتى ما إذا نال الإعدام كمجازاة على أخطائه على الأرض، يستحق بعد ذلك المكافأة الأبدية على أساس أنه ميت على رجاء القيامة والإيمان بوجود الله. ولكن المولود أعمى هنا لا يهاب الموت، وبحكمة يبتعد عن الآراء التى ستجعل الحوار طويلاً ويركز على الحقائق "كنت أعمى والآن أبصر". وبهذا يخرج من مأزق أن المسيح ـ حاشا ـ خاطئ لأنه نقد السبت، إلى مدخل المسيح نبى لأنه أبرأه.

هؤلاء الفريسيون يحكمون على المسيح أنه خاطئ لأنه كسر السبت وهى نظرة قاصرة منهم، هؤلاء لا يعرفون الله ولم يروه بل يعبدون إله إسمه الحرف.

"فَأَجَابَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئاً وَاحِداً: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ»." (يو ٩ : ٢٥).

كنت أعمى وفى العمى أبصرت الله مثلما أبصر يونان الله فى ظلمة جوف الحوت. أيوب رأى الله ولقبَّه بألقاب لا تنطبق عليه. ولكن فى النهاية بعدما عرفه يقول **"بِسَمْعِ الأُذُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ وَالآنَ رَأَتْكَ عَيْنِي."** (أى ٤٢ : ٥).

"فَقَالُوا لَهُ أَيْضاً: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟». أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تلاَمِيذَ؟». فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تلاَمِيذُ مُوسَى. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». أَجَابَ الرَّجُلُ: «إِنَّ فِي هَذَا عَجَباً! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ. وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ. مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَداً فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً». قَالُوا لَهُ: «فِي الْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا!» فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً." (يو ٩ : ٢٦ ـ ٣٤).

ويا للألم الذى تعرض له المولود أعمى .. فما أن تم الشفاء وبدأت الدنيا تنير فى وجهه، حتى بدأت المتاعب وهى التحقيقات المستمرة حول طبيعة شخص هذا الطبيب الذى لا يراعى حرمة السبت. وبرغم أن الله قد قال سابقا "أريد رحمة لا ذبيحة" إلا أن هؤلاء تهمهم الذبيحة لا الرحمة.

هذه هى طبيعة الحياة الدنيا، تعطى بيد وتأخذ باليد الأخرى. هذه الحياة لا تترك الإنسان يهنأ بالخير يوماً كاملاً دون أن تنغصه بموقف يُنْقِص من فرحته، حتى أننا نستطيع أن نقول "ليس إنسان يفرح يوماً كاملاً ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض".

لو تعرض إنسان آخر لما تعرض له المولود أعمى لربما قال "ماذا جنيت من بصرى إلا الأتعاب والتهديد بالموت؟ .. ألم يكن من الأفضل لى أن أحيا أعمى بدلاً من هذا الإضطهاد الكثير

وأنا أبصر؟". و لكن أبداً لم يكن هذا فكره، فهو يُقَدِر الجميل ويشكر على النعمة ويفرح بالعطية، وليس ككثيرين يتذمرون على عطايا الله ونعمته أن أعطاهم الله شيئاً يتبعه ألم!

فهناك مَن يطلب من الله عملاً فيعطيه الله عملاً ولكن مصحوب ببعض المتاعب، فيبدأ الإنسان فى التذمّر. يعطى الله الإنسان خدمة ما فيشعر الإنسان بالضيق من أتعاب الخدمة.

يعطى الله الإنسان علاقات وأصدقاء فيبدأ الإنسان فى الشكوى من هؤلاء الأشخاص ومما تحمله العلاقات من أتعاب للمحافظة عليها ومجاملات وإلتزامات. يعطى الله للإنسان شريك حياة وأبناء، وبعد أن يفرح بهم قليلاً يبدأ فى الأنين منهم ومن متطلباتهم.

"فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللَّهِ؟». أَجَابَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأُومِنَ بِهِ؟». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ والَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». فَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ." (يو ٩ : ٣٥ ـ ٣٨).

وهكذا انتهت قصة التخبط والظلام برؤية المولود أعمى للمسيح وإيمانه به ومعرفته، فقد عرفه وأحبه ونفذ وصاياه وشهد له.

"فَقَالَ يَسُوعُ: « لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ»." (يو ٩ : ٣٩).

وربما جملة "يعمى الذين يبصرون" تعنى أن الله سيسمح للمبصرين الذين لا يروا الله أن يذوقوا العمى لكى ما يبصروه.

"فَسَمِعَ هَذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمْيَانٌ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَاناً لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلَكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ»" (يو ٩ : ٤٠ - ٤١).

الله يحب الإعتراف بالخطأ وإدراك الإنسان طبيعة حاله، لكن هؤلاء منشغلين برؤية أشياء أخرى غير الله. والأب ثيوناس يقول [بسبب إنشغال العقل الأعلى فى غير رؤية الله نسقط أسرى الأهواء الجسدية].

وهكذا انتهت القصة بأن هؤلاء المبصرون الذين يظنون أنهم يعرفون الله هم فى الحقيقة عميان وجهال، بينما المولود أعمى الذى يظن أنه لا يرى شيئاً أصبح أقوى المبصرين الذين رأوا الله وعرفوا الله، وصار اسمه مقترناً بسر البصيرة، سر المعمودية، وصار كثيرون يعمدون أبناءهم فى أحد المولود أعمى من الصوم المقدس، مرنمين فى قلوبهم "كنت أعمى والآن أبصر".

الفصل الثالث ..

بعض صفات اللّه
من خلال قصة آدم

من خلال قصة آدم سنعرف بعض صفات الله (محب الجمال للخليقة والإنسان ـ البستانى ـ يُوجِدِ الإحتياج ويسدده ـ الديمُقراطى ـ يتحمَّل اللوم بدل الإنسان)، وسنفهم بعض وصاياه من خلال لغز شجرة معرفة الخير والشر.

أولاً .. اللّه محب الجمال للخليقة والإنسان

"فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ." (تك ١ : ١ ـ ٢).

خلق الله السموات والأرض, ولطالما تحيَّرنا فى ماهية هذا الكون العجيب وكل تلك النجوم والمجرات البعيدة والقريبة والبعيدة جداً والتى ضوئها لم يصل إلينا بعد، بينما الكوكب الوحيد الذى توجد عليه حياة هو كوكبنا، ولكن إن كنا نحن الوحيدون فى هذا الكون .. إذن كل هذا الكون الفسيح صُنِعَ لخدمة الإنسان من إله يقدّر الإنسان.

حتى أن العالِم أينشتين أذهله الكون فقال [يشتمل ديني على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحدودة التى تكشف فى سرها عن بعض التفصيلات القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها. وهذا الإيمان القلبي العميق والإعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا، نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض، يلهمنى فكرتى عن الإله]. وقال أيضاً: [لا يمكننى أن أعتقد أن الخالق يلعب النرد

بالدنيا أى أنه لم يخلق العالم فحسب، بل خلقه بحكمة وفطنة، ولغرض ثابت خاص].

الله راعِى للعالم كله ومهندس الكون وبما أنه يعرف أنه سيخلق الإنسان فهو إذن قد صنع ما سيسدد إحتياجاته. كما أن الله فنان لذلك اهتم بأن ما تصنعه يداه يكون جميلاً متناسقاً، لذا تتكررت فى سفر التكوين آية **"وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ." ..**

- **"وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ."** (تك ١ : ٤).
- **"وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضاً وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَاراً. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ١٠).
- **"فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْراً كَجِنْسِهِ وَشَجَراً يَعْمَلُ ثَمَراً بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ١٢).
- **"وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ١٨).
- **"فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ وَكُلَّ نَفْسٍ حَيَّةٍ تَدِبُّ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ٢١).
- **"فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ٢٥).

وعندما اكتملت لوحة الخليقة لا يكتفى الكتاب بكلمة حسن بل أضاف "حسن جداً" .. **"وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدّاً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْماً سَادِساً"** (تك ١ : ٣١).

الله إله نظام وليس إله تشويش. أنه يحتمل عشوائية الإنسان وفوضويته كجزء من كونه إله رؤوف، مثلما يحتمل ما هو أسوأ وهو خطاياه. فاحتماله لخطايانا ليس معناه أنه موافق عليها، وكذلك احتماله للفوضى التى نحدثها فى الكون ليس معناه أنه موافق عليها.

خلق الله النور الأكبر لحكم النهار والأصغر لحكم الليل. أضاء الله النهار وهذا منطقى ولكن يا لجمال التعبير "الأصغر لحكم الليل" (وكأنه يبعث أشعة ولو ضئيلة لهؤلاء السائرين فى الظلمة). وأيضاً لأن هناك حيوانات ليلية لا تنشط إلا فى الظلام فحتى هؤلاء يضع لهم نوراً طفيفاً لينير لهم، لايزعج به الحيوانات النهارية.

والجميل أن الله لم يكتفى بالقمر لحكم الليل لأن القمر غير مضمون، فهو تارة كبير منير وتارة صغير، وفى بعض الأيام لا نراه من الأصل. لذا خلق الله تلك الأنوار - النجوم - كمخزون إحتياطى ضخم من الإضاءة لحكم الليل. وفى كثرتها لتعزية للإنسان، فإذا ما ودع الإنسان الشمس مغتماً لرحيلها وهى ونيسته ومنيرته، إذ بالله يُضئ عليه بملايين الأنوار. ليعزيه على تلك الظلمة المؤقتة. وكلما إزدادت الدنيا ظلاماً كلما سطعت تلك النجوم أكثر وأكثر حتى لفاق جمالها وروعتها تلك الشمس, وتهب نسمة الليل الباردة لترطب على قلب الإنسان بدل تلك الشمس التى ربما فى لحظات غضبها أحرقت جلده فى ساعة ظهيرتها.

والليل عموماً هو وقت إفتتان القديسين بالله، حيث السكون والهدوء. فإن كانت الشمس تضيئ النهار لتتيح للإنسان رؤية أعماله اليومية لخدمة الجسد، فنجوم الليل تنير قلب الإنسان لأعمال الروح. والنور والظلام يتعاقبان لكى ما لا يصاب الإنسان بالملل.

خلق اللّه الإنسان على شبهه

نحن نعلم أن هذا التشابه هو كرامة للإنسان، فالكائن غالباً ما يريد أن يكون فريداً متفرداً لا يشبهه أحد وقد تتملكه الغيرة إذا ما شابهه أحد فى تفوق ما، ولكن الله الكلى الحب فرح أن يشاركه الإنسان فى شبهه، فلقد أراد الله أن يكون للإنسان أحلى وأجمل وأكمل شكل، ولمَّا لم يجد الله فى الكون أحلى أو أكمل منه، أعطى الإنسان أحلى شىء ألا وهو نفس صورته ومثاله.

ثانياً .. اللّه البستانى

رغم أن كل أشجار الفردوس كانت خليقة الله بكلمة من فيه، إلا أنه يحتاج الإنسان ليعمل تلك الأرض **"وَقَالَ اللهُ: "لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْراً وَشَجَراً ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَراً كَجِنْسِهِ بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ". وَكَانَ كَذَلِكَ. فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْراً كَجِنْسِهِ وَشَجَراً يَعْمَلُ ثَمَراً بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ."** (تك ١ : ١١ ـ ١٢) .. **"كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الأَرْضِ وَكُلُّ عُشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الأَرْضِ وَلاَ كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ."** (تك ٢ : ٥).

ولذلك صار الله بنفسه بستانى الأرض بدل الإنسان الذى سيأتى فيما بعد، والأرض أيضاً أخرجت الإنسان مثلما أخرجت الأشجار والعشب **"فَأَجَابَ: «كُلُّ غَرْسٍ لَمْ يَغْرِسْهُ أَبِي السَّمَاوِيُّ يُقْلَعُ."** (مت ١٥ : ١٣). وأحياناً ما يشبّه الكتاب حياة الإنسان بعشب

الأرض الذى سريعاً ما يزول عن وجه الأرض **"الإِنْسَانُ مِثْلُ الْعُشْبِ أَيَّامُهُ. كَزَهْرِ الْحَقْلِ كَذَلِكَ يُزْهِرُ."** (مز ١٠٣ : ١٥).

ولذلك ظهر عند القيامة، ورأته المريمات كأنه بستانى، ليذكرنا بغرسه للأرض القديمة وللإنسان القديم، وأنه بالقيامة غرس خليقة جديدة وإنساناً جديداً.

ثالثاً .. اللّه يوجد الإحتياج قبل أن يسدده!

"لَيْسَ جَيِّداً أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ" (تك ٢ : ١٨) .. هكذا رأى الله فى وحدة آدم ولكن آدم لم يكن بعد يرى ذلك، لذلك أوجد الله فيه الإحتياج لحواء أولاً، عن طريق أنه جعله يرى كل الحيوانات أزواجاً فيتمنى لنفسه شريكاً مثلها، وهنا يحضر له الله حواء فَيُقَدِرَها. وهكذا يوجد الله فينا الإحتياج أولاً حتى نُدرك قيمة العطية الإلهية ونشكره عليها.

ولعل أحد بركات الخروج من الفردوس أن الإنسان اكتشف إحتياجاته الكثيرة لأشياء قيمة لا توجد بشكل كامل على الأرض، مثل السلام الدائم والأمان والمحبة الكاملة، حتى ما إذا وجدت فى السماء شعر الإنسان بالإمتنان لوجودها.

مثال: كم يشتاق الإنسان لأن يُحِب ويُحَب ولكن الأرض تعرضنا للكثير والكثير من الصراعات، فكم يتمنى الإبن أن يحبه أبوه حباً راقياً دافئاً بلا مقابل .. ولا يجده!، كم يتوق الأخ أن يجد أخيه يسرع إلى نجدته وعونه فى محنته .. ولا يجده!، كم تشتاق الزوجة إلى إهتمام شريكها .. ولا تجده!، كم يشتاق الزوج إلى

إمرأة تحبه وتقدره وتحترمه .. ولا يجد!. هكذا يولد عند البشر ذاك الإحتياج إلى الحب الحقيقى، وعندما يدفع البشر تكلفة عالية لإقتنائه يدركون كم هو شىء قيّم أن تكون السماء مملكة للحب، كل مَن فيها يحب دون شرط أو قيد. ولعل القديسين السمائيين الذين يحبون الأرضيين حب حقيقى ويشفعون فيهم، هم تعويض عن عدم وجود الحب فى الأرض وعربون مشجع لإنتظار الحياة الأبدية حتى نراهم ونفرح معهم وبهم.

ثم يأتى إحتياج آخر كالأمان، فهؤلاء الذين يعيشون فى حروب أو فى أماكن ذات كوارث طبيعية كالزلازل والسيول والفياضانات، أو الذين يعيشون فى مناطق معرضة لهجمات إرهابية، كل هؤلاء يتوقون إلى ذلك اليوم الذى تزول فيه كل تلك التهديدات. يوم تزول السماء بسيولها والأرض بأخطارها والنجوم بنيازكها، ولا يبقى إلا ذلك الملكوت السماوى حيث يمسح الله كل دمعة من عيونهم.

قد خلق الله آدم سيداً ولم يُقَدِر ما هو فيه فتحوَّل إلى عبد حتى يقدر فيما بعد قيمة السيادة [مَن لا يعرف أن يكون عبداً لن يستطيع أن يكون سيداً] أنطون تشيخون.

لغز .. شجرة معرفة الخير و الشر

غريب إن هذه الشجرة هى شجرة للخير والشر. كيف يمتزج الخير والشر فى شجرة واحدة. ماذا كانت رائحتها وماذا كان طعمها؟ نعم قد ذكر الكتاب أنها شهية النظر وبهجة للعيون ولكن هل طعمها حلو كالخير أم لازع كالشر؟ فالشجرة غريبة تحمل

متناقضين الخير والشر. لماذا لم تكن الشجرة الممنوعة شجرة معرفة الشر فقط؟ لماذا هى معرفة الخير والشر؟ وخصوصاً أن آدم بطبيعته المقدسة يعرف الخير لأنه على صورة الله؟

أولاً: ربما معرفة الخير تخفف من الشر، فالله بمحبته يعرف أن الإنسان سيأكل من الشجرة، فوضع معرفة الخير ممتزج بمعرفة الشر.

ثانياً: لكى ما يقدم معرفة الخير فى حال سقوط الإنسان فى الشر فيعرف ما البديل الخَيِّر الذى يصنعه ليخرج من الشر. وهذه الفكرة فى غاية الأهمية، فكثيراً ما نُلام على فعل الشر دون أن نعرف ما البديل الخيّر لهذا التصرف. كثيراً ما يعاقب القانون على الشر دون أن يقدم البديل الخير للشخص لكى ما يتجنب فعل الشر، فالقانون يعاقب السارق دون أن يعطيه وسيلة للعيش حتى لا يحتاج أن يسرق.

أمَّا الغرابة فهى إستخدام الله لكلمة الخير**!** فهو لم يقل الصواب والشر، أو الفضيلة والشر، بل "الخير والشر" فكلمة الخير معناها البركة والشىء الذى يعود بالنفع على الإنسان (فلنشكر صانع الخيرات)، لعل الله يريد أن يقول، إن كانت الفضيلة تحمل خيراً للإنسان فالرذيلة تحرمه من هذا الخير، لذلك الخطية خطأ ليس فقط لأن الله أمر بالإمتناع عنها، ولكن لأن الله محب الإنسان يرى ما تحمله الخطية من دمار للإنسان وسلب للخير الآتى له من صانع الخيرات.

والحقيقة بالرغم من اللعنة التى يحملها الأكل من الشجرة، لكنها أيضاً تحمل بركة غريبة جداً!! فالله ضمن بها أن يكون البشر جميعاً عندهم معرفة يقينية بالخير والشر، وكأنها زى أخلاقى موحد يرتديه الضمير الإنسانى عامة، فيمتلك بذلك جميع البشر فرصة للتمييز بين الخير والشر. حتى الملحدون ضمن الله لهم وسيلة للتفرقة بين الخير والشر، حيث لا إله يؤمنون به ولا ديانة ينتسبون إليها ولا كتاب دينى يقرأونه.

أيضاً هناك شر نتركه وخير نسعى إليه، فهناك مستوى متواضع وهو أن يتجنب الإنسان فعل الشر، وهناك مستوى أعلى وهو أن يسعى الإنسان لفعل الخير. [مَن لا يقدر على فعل الفضائل فلتكن فضائله فى ترك الرزائل] أرسطو. أما الأعظم فهو مَن لا يشتهى الشر من الأصل، كما يقول جورج برنارد شو [ليست الفضيلة فى أن نتجنب الرزيلة بل فى ألا نشتهيها].

وقد غُرِسَت أفكار الشجرة فى عقل البشرية كلها إلى الدرجة التى حيَّرت علماء الإجتماع، فهم قد وجدوا أن الملحدين الذين لا يؤمنون بالله يجتاحهم شىء من الإحساس بالذنب بعد الخطأ فتعجبوا. لأنه إن كان الإنسان المتدين يشعر بالذنب لعلمه أن هناك إله يجازى، فكيف يشعر الملحد بالذنب وهو المقتنع أنه لا حياة ولا دينونة بعد الموت. لذلك وضعوا نظرية أنه ربما هناك جين خاص بالأخلاق وسموه "جين الضمير العالمى"!!.

وربما يتساءل البعض إن كان كل البشر قد عرفوا الخير والشر فما فائدة الإنجيل؟

يبدو أن كل البشر قد عرفوا الخير والشر ولكن لم يكتشف البشر الحدود بين الخير والشر، فقد عرفوا عناوين الخير والشر ولكن ما عرفوا بدقة تفاصيل الخير والشر، بل إن ما يبدو خيراً عند أحد المذاهب يبدو شراً عند المذهب الآخر.

ولذلك جاءت المسيحية لتعطينا معرفة الله (أعطيتنى علم معرفتك) لتكمل التفاصيل الناقصة فى شجرة معرفة الخير والشر. ومعرفة الخير والشر نعمة عندما نرى تخبط الفلاسفة ما بين الخير والشر.

جاءت المسيحية لتركز على المعرفة الداخلية وليس المظهر الخارجى فيقول القديس أرسانيوس [جاهد بكل قوتك لكى يكون عملك الداخلى وفقاً لإرادة الله، فتغلب الأهواء الخارجية] أى أن تصليح داخل القلب سيقود إلى تصحيح الأخطاء الظاهرة وهذا عكس ديانة الأخلاق التى ربما تركز بالأكثر على السلوك الخارجى.

ولكى ما تكمل قصة الشجرة نتذكر ما كتبه القديس أمبروسيوس [لتوجد مشكلة أخرى لابد من حلها. من أين جاء الموت لآدم وما هو مصدره؟ هل كان الموت فى طبيعة الشجرة نفسها، أم أنه أصلا من الله؟ إذا نسبنا الموت إلى طبيعة الشجرة، جعلنا ثمرة الشجرة أقوى من الحياة التى وُهِبت بنفخة من الله، لأن ثمرة الشجرة جاء بمخاض الموت لمَن نال الحياة بنسمة الله. وإذا قلنا وتمسكنا بأن الله هو المسئول عن الموت، فإننا نتهم الله بالتناقض، لأنه كما يبدو نتهمه بالخلو من الصلاح، أو أنه قاس لأنه

لا يريد أن يغفر رغم أنه يمتلك القدرة على المغفرة، أو أنه عاجز على المغفرة.

ماذا نقول وما الرد المناسب على هذا السؤال؟

والرد كما يبدو لى ـ إلا إذا كنت مخطئاً ـ هو أن العصيان نفسه هو مصدر الموت، لذلك السبب لم يكن الله هو مصدر الموت، بل الإنسان نفسه هو مصدر الموت.

والمثال التالى يوضح ما أريد أن أقول، إذا وصف طبيب دواء لمريض أو طلب منه أن يمتنع عن أشياء معينة، ثم ظن المريض أن هذا التحريم هو غير ضرورى, فإن موت المريض لا يكون مسئولية الطبيب، بل يقع الذنب على المريض نفسه، فهو الذى تسبب فى موته. وهكذا الله هو الطبيب الصالح الذى منع آدم من الأكل حتى لا يصبح الأكل من الشجرة هلاكاً له.

ولم يكن آدم ليدرك قيمة نور الفضائل إلا بعدما ذاق مرارة ظلمة الخطية والتى كان بكر أولادها الحسد ثم القتل الذى أنتج الثكل له بسبب خطايا إبنه قايين الذى قتل أخاه هابيل.

رابعاً .. اللّه الديمُقراطى

"وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: "أَحَقّاً قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟". فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: "مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ. وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلَّا تَمُوتَا". فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: "لَنْ تَمُوتَا!. بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ

يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ". (تك ٣ : ١ ـ ٥).

سمعت حواء كلام الحية، ورأت عيناها الثمرة، وصدقت أذنيها وعينيها، ولم تكن بعد تعرف الحكمة التى تقول [لا تر كل ما تراه عيناك ولا تسمع كل ما تسمعه أذناك] وليم شكسبير. ولكن هكذا سارت القصة، ولن نلومها، وهى ثانى بكر للخليقة وتحمل من السذاجة قدراً كافياً لتصديق الحية، أوقعها فى الفخ بسهولة.

وإن كان الله طيب مع آدم وحواء فالأطيب أنه يسمح لعدوته ـ الحية ـ أن تتقاول عليه كيفما تشاء ويتركها لتفترى عليه لأنه يترك الحرية للخليقة. وأتعجب من الحية التى بالرغم من معرفتها لقدرة الله وعلمها أن الله يعلم ويسمع ما يدور فى الخفاء، تجاسرت وتكلمت عن الله.

"فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ: "أَيْنَ أَنْتَ؟"." (تك ٣ : ٩).

الله يبحث عن الإنسان، فآدم لا يعرف كيف سيكون رد فعل الله، فإختفى منه. فآدم قد عرف الخير والشر بعد أكله من الشجرة، وميّز أنه عريان، وربما ميّز أن أكله من الشجرة فى حد ذاته شر لأنه عصى الله، ولكن الشجرة لم تُعَرِّفَهُ قلب الله، الشجرة عرفته الخير والشر، ولكن لم تعرفه كيف يتعامل الله مع خير الإنسان وشره. ربما عنده معرفة بسيطة، أن أجرة الخطية موت، وأن البر مكافأته شجرة الحياة، ولكن آدم لا يعرف بعد أسرار الله فهو قد يرحم الخاطئ وقد يؤدبه .. وهو يرفع الصليب أو يزيده على البار! يطيل أناته أحياناً على الأشرار فى فظائعهم ولا يسمح بهفوات

الأبرار أن تمر دون تأديب أو عقاب. تارة يهدد ويؤدب، وتارة يتغاضى ويتناسى، **"الرَّبُّ يُمِيتُ وَيُحْيِي. يُهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ وَيُصْعِدُ."** (اصم ٢ : ٦)، **"لأَنَّهُ هُوَ يَجْرَحُ وَيَعْصِبُ. يَسْحَقُ وَيَدَاهُ تَشْفِيَانِ."** (أي ٥ : ١٨).

وبالرغم من أن الله يعرف كل شىء، وعرف خطأ قلب آدم الإنسان، إلا أنه بعدله أراد أن يسمع دفاع الإنسان عن نفسه، وسمع لآدم وسمع لحواء، ولكن لم يسمع للحية لأنها كاملة المعرفة وتعرف تماماً ما صنعته من خبث ولؤم.

وبدل من أن يعترف آدم بالخطأ، ولكنه ألقى بالتهمة على حواء، بل بالأكثر على الله الذى خلق حواء. ولكن الغريب أن الله لم يدحض هذا الإدعاء الكاذب، لأنه يتحمل اللوم بدل الإنسان!!

خامساً .. يتحمَّل اللوم بدل الإنسان

السبب الأساسى فى أن الله قرر أن يتحمل ملامة الإنسان هو سبب فى غاية البساطة، وهو أن الإنسان الضعيف لا يستطيع أن يحتمل الألم الناجم عن احساسه بأنه جلب العقاب على نفسه بسبب أخطائه، فيميل إلى إلقاء المسئولية على آخر، ويبدو أن الله الحنان قبل هذه المهمة مؤقتاً إلى أن ينضج الإنسان ويبدأ فى الإعتراف بمسئولية أفعاله ويقول أخطأت نحو السماء وقدامك. نعم تَحَمَلَ الله مسئولية خطأ الإنسان ظاهرياً، وهكذا بدأت فكرة الصليب والفداء والتى هى فى بساطتها برئ يموت عن خاطئ، فيرى العالم المسيح البرئَ محكوم عليه بالموت فيظن أنه المخطئ، ويرى الخاطئ نفسه حراً فيظن لغبائه بأنه برئ، أليس هذا ما يحدث فى الحياة، نرى

إنساناً خاطئاً وسكيراً ومدمناً ومجرماً فنسأله: مَن المخطئ؟ فيقول: هو الله السبب الذى جعلنى فى أسرة كذا وكذا ولم يعطنى مالاً كافياً ولا منزلاً جيداً أما أنا فبرئ لم يكن أمامى اختيار، الله هو السبب**!!** والغريب أن الله يصمت لأنه يعلم أن الإنسان لن يحتمل مواجهة نفسه، إلى أن ينضج فيقول لست مستحقاً لهذا الفداء لست مستحقاً للعفو الإلهى ولست مستحقاً أن أدعى ابناً بل اجعلنى كأحد أجرائك لكى ما أظل أتذكر جرمى.

وبالرغم أن آدم وصله تحذير الله كاملاً قبل السقوط إلا أنه ربما لم يتخيل حجم الكارثة التى سيقع فيها. لم يتخيل أن الطرد من الفردوس سيكون حقيقى، وتخيل أنه ربما لو صار مثل الله سيمتلك نفس القوة التى لله والتى ستجعله يستطيع الدفاع عن نفسه من الله.

وهكذا الإنسان فى كل العصور أُعطى الحرية والفهم، والمفروض أن يتحمّل المسئولية، ولكن الحقيقة أن الإنسان لا يرى المستقبل كاملاً، وبالتالى لا يقدر أن يحسب بدقة تكلفة الخطأ والخطية، ولو علم الإنسان المستقبل كاملاً لربما توقف قليلاً عن فعل الشر. ولأن الله يعرف قصور معرفة الإنسان، لذلك فهو لا يجعله يتحمَّل المسئولية كاملة عن أخطائه بل يتركه يلقى ببعض المسئولية على الظروف والأحداث وربما الله حشا. لذلك جاءت كلمات السيد الشفاعية عن البشرية **"يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ"** (لو ٢٣ : ٣٤)، والآية العظيمة لا تحمل حب الله وتواضعه ومغفرته فقط، بل تحمل أيضاً الحقيقة المجردة أن الإنسان لا يعرف ماذا يفعل. فمهما أوتينا من العلم والمعرفة سنظل نجهل ماذا نفعل، وستظل مراحم الله تصحح وراءنا جهل أفعالنا، وسيكون

جهلنا هو الحجة الوحيدة التى بها نطلب من الله رحمته وستره علينا وستكون جملة **"وَلَكِنَّنِي رُحِمْتُ، لأَنِّي فَعَلْتُ بِجَهْلٍ فِي عَدَمِ ايمَانٍ."** (اتى ١ : ١٣) هى المسكنة المتواضعة التى تجعل أحشاء الله تئن علينا فى ضعفنا وتسامحنا على كل ما صنعنا بجهل.

بعد الأكل من الشجرة جاءت العقوبة والتى هى فى الحقيقة تمهيداً هاماً للمكافأة المقبلة، آدم لم يُقَّدِرْ الفردوس المملوء من الشجر المثمر، وكأن هذا فرضاً على الله. فكان لابد له أن يزرع الأرض بعرق جبينه ليقدر تلك النعمة، بل أنه أحياناً سيزرع ولكن لن يحصد ثمراً مفرحاً، بل شوكاً وحسكاً أى أنه سيزرع عنباً فيحصد شوكاً ويزرع تيناً فيحصد حسكاً، مع أن العكس مستحيل إذ أن رب المجد أعلن متعجباً **"هَلْ يَجْتَنُونَ مِنَ الشَّوْكِ عِنَباً أَوْ مِنَ الْحَسَكِ تِيناً؟."** (مت ٧ : ١٦).

وعندما يتعب وتثمر الأرض سيشكر الله جداً على أن تعبه لم يذهب سدى.

أخيراً .. حاولنا فى السطور السابقة أن نعرفه ولكن كلما اقتربنا من معرفته اكتشفنا أننا لا نعرفه ولعل آية **"وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ"** (يو ١٧ : ٣) تدل على أن معرفة الله الكاملة لن تحدث إلا فى الأبدية أو لهؤلاء الذين باعوا العالم وعاشوا الأبدية على الأرض. وسيظل فعل "أعرفه" موضوع فى زمن المستقبل "لأعرفه" حيث لن يستطيع أحد أن يقول عرفته بزمن الماضى. وإنما يسمح الله لنا بمعرفته معرفة تكفى لعبور هذا العالم الزائل، معرفة تسمح لنا

بالقدرة على فهم كيفية التعامل مع الله دون فهم لِماهية الله، مثلما يعرف الطفل الصغير كيف يتعامل مع أبيه ويجتذب عطفه دون استيعاب كامل لفكر هذا الأب وعلم هذا الأب وإدراك هذا الأب. ولذا سنفرح ونسبح ونهلل لله فى كل ليتورجيا قائلين "أعطيتنى علم معرفتك".

الـفـهـرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مـقـــدمـــة ....
	• الفصل الأول:
٧	لأعرفه ....
	• الفصل الثانى:
١٩	لأعرفه من خلال المولود أعمى ....
	• الفصل الثالث:
٣٧	بعض صفات الله من خلال قصة آدم ....